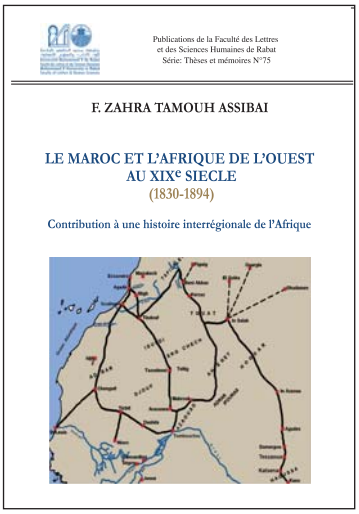

Fatima Zahra Tamouh Assibai.- *Le Maroc et L'Afrique de l'ouest au XIX^{ème} siècle (1830-1894): Contribution a une histoire interrégionale de l'Afrique* (Rabat: Publications de la FLSH. Série: Thèses et mémoires N° 75, 2017) 306p.

فاطمة الزهراء طموح السباعي.- المغرب وإفريقيا الغربية خلال القرن XIXم (1830-1894): مساهمة في كتابة التاريخ الجهوي لإفريقيا (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 75، 2017)، 306 ص

بعد طول انتظار، صدر أخيرا ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط لعام 2017 مؤلف فاطمة الزهراء طموح السباعي، تحت عنوان: **المغرب وإفريقيا الغربية خلال القرن XIXم (1830-1894م): مساهمة في كتابة التاريخ الجهوي لإفريقيا**. ويدرك المتتبع لمسار المؤلفة، أننا أمام باحثة أكاديمية، يجمع أهل الاختصاص على أنها رائدة حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب. وعلى امتداد مشوارها العلمي، كانت الباحثة فاطمة الزهراء طموح من المؤمنات بأن التراكم الكمي يؤدي حتما إلى التغير النوعي، فكان لها الفضل الأول في توسيع قاعدة المختصين، وتابعت عن قرب جل التطورات التي عرفها حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب.

أصل هذا العمل، رسالة جامعية برسم نيل دكتوراه السلك الثالث، تمت مناقشتها نهاية العام 1982 بمركز الدراسات الإفريقية التابع لجامعة پـانتيون ـ السوربون (باريس 1)، أشرف على تأطيرها رسميا إيڤ بِّيرسون (Yves Person) مع مواكبة حثيثة من جانب جان دوڤيس (Jean Devisse)، وكلاهما كانا يعدان وقتئذ، من أبرز الباحثين الإفريقانيين (Africanistes) بالساحة الفرنسية والأوروبية عموما.

وناهزت الفترة الفاصلة ما بين تاريخ المناقشة وتاريخ النشر حوالي 35 سنة، مما حتم بعض التعديلات الضرورية، مثل تحيين المعلومات أو تيسير أفق تلقي القارئ غير المختص، ومن ذلك التعديل الذي مس مفهوما محوريا في العنوان، حيث كانت صيغته في الأصل: **المغرب والسودان خلال القرن XIXم**؛ ولتلافي أي خلط أو تشويش على القارئ، تم اعتماد مفهوم إفريقيا الغربية عوض السودان تيسيرا للأخذ، علما أن المفهومين متقابلان ولهما الدلالة نفسها لدى أهل الاختصاص.

وتقع الدراسة في 305 صفحة، مقسمة إلى قسمين مع مقدمة وخاتمة، وقد ذيلتها المؤلفة بلائحة بيبليوغرافية غنية وخصبة، اجتهدت في تحيينها بأن أضافت إليها عناوين دراسات كثيرة

صدرت بعد تاريخ المناقشة (1982) وذلک إلى غاية العام 2010.

وقفت المقدمة عند بعض المفاهيم الواردة في عنوان الدراسة مجاليا وزمانيا مع إبراز حيثيات الانتقاء، ناهيک عن تقديم لمحة مركزة عن المواد المصدرية المعتمدة. وتبعا لذلک، تم توضيح السبب وراء اختيار مفهوم إفريقيا الغربية عوض مفهوم السودان مما أومأنا إليه أعلاه، كما استدعت الباحثة الحدين الزمنيين، فأشارت إلى أن التاريخ الأول (1830) يوافق حدث احتلال الجزائر، فيما ينتقل بنا التاريخ الأخير (1894) إلى لحظة اكتساح الجيش الفرنسي لتنبكت.

وعلى امتداد هذه الفترة (1830-1894) انكبت الدراسة على تأصيل طبيعة العلائق المتعددة بين المغرب وإفريقيا الغربية استنادا إلى شهادات مصدرية معتبرة، نخص بالذكر منها الرحلات الاستكشافية الأوروبية لدواخل القارة السمراء خلال القرن XIXم (روني كايي، هنري بارت، أوسكار لانز، إلخ)، وأيضا المراسلات التي جرت حينئذ بين النخب العلمية ورجالات أهل التصوف بالغرب الإسلامي بمفهومه الواسع.

ويأخذنا القسم الأول الذي تزيد عدد صفحاته عن الـ 160 صفحة لتتبع جل أوجه الأنشطة التجارية بين المنطقتين بغية دحض الرأي السائد من أن التجارة العابرة للصحراء خلال القرن XIXم فقدت كل أهميتها بعد نهاية القرن XVIم. وفي هذا المسعى، قد يكون من باب الاعتراف الموضوعي تأكيد ذلک على المستوى الكمي مقارنة بفترة الازدهار خلال العصر الوسيط؛ بيد أن قرائن الأحوال خلال القرن XVIIم وما لحقها من فترات، يحملنا على مراجعة تصوراتنا. فعلا لقد انتصرت الكاراڤيلا على الجمل سفينة الصحراء، غير أنها لم تقتله.

ومما يسوغ هذا التصور، أن الشهادات المتوفرة عن القرن XVIIم، تشير إلى حدة التنافس بين القوى المختلفة بالمغرب وقتئذ (السملاليون والدلائيون والعلويون) بهدف السيطرة على المحاور التجارية المتجهة للسودان الغربي ومراقبتها، وبالتالي تحصيل موارد مالية تسمح بتغطية مصاريف السلطة المركزية، خاصة ما تعلق منها بتجهيز الجيش.

ونصادف ذات الهواجس إبان القرن XIXم سواء مع السلاطين العلويين أو بعض الشخصيات والأسر النافذة بجنوب المغرب، كما هو الحال مع أسرة بيروک أو أسرة الحسين أوهاشم؛ ومثل هذه المؤشرات، تدلنا على مقدار حيوية التجارة العابرة للصحراء في الحياة الاقتصادية والسياسية لمغرب ما بعد القرن XVIم.

تكون القسم الأول من ثلاثة فصول؛ همّ الأول منها الجانب التنظيمي للتجارة العابرة للصحراء، حيث تعرض بإسهاب مفيد لتشكيل القافلة والعناصر الفاعلة فيها على مستوى التأطير. وعلى إثر ذلک، انخرطت الدراسة في بسط خريطة المسالک التجارية الغربية أو الأطلنتية الرابطة ما بين ضفي الصحراء، والتي عادة ما كانت ترتبط بنقاط الماء، وتتجنب

الفيافي المقفرة والمهلكة. ولما توجهت العناية لرصد كيفية تحصيل حقوق المرور المفروضة على التجار، تم التنويه بالاعتبارات السياسية والاقتصادية والدينية التي تحكمها، ومن ذلك أن الشيخ المختار الكنتي كان يعفي شريف تافيلالت منها.

وتناول الفصل الثاني طبيعة المواد المتداولة في التجارة العابرة للصحراء سواء منها الصاعدة من الجنوب نحو الشمال مثل الذهب وريش النعام والعاج والرقيق الخ، أو تلك التي حملها تجار المغرب نحو أسواق إفريقيا الغربية، ومنها الملح والتبغ والمنتجات النسيجية والتمور. وبالموازاة مع ذلك، وقعت الإشارة لبعض المواد الأوروبية كانت تدخل أسواق إفريقيا الغربية عبر المغرب، نخص بالذكر منها المصنوعات الزجاجية والورق والأسلحة النارية.

ولعل أهم ما يشد انتباه القارئ في هذا الجانب، الحاجة الماسة لدار السكة المغربية لمادة الذهب الضرورية لسك العملة، وكيف أن الأسواق المغربية لم تكن تتوصل إلا بالنزر القليل من هذه المادة (83). أما فيما يتعلق بتجارة الرقيق، فقد تراجعت بالمغرب مثلما بات عليه الوضع بتونس أو الجزائر منذ منتصف القرن XIX؛ ولخدمة هذا الغرض، تمّ استدعاء موقف الناصري (في كتابه **الاستقصا**) الرافض لهذه التجارة بناء على قيّم دينية وإنسية.

وفي الفصل الثالث من القسم الأول، جاء الحديث عن مراكز التبادل التجاري، ووقع التركيز على النماذج التي تمتعت بحيوية بالغة حينئذ، مثل گـلميم وإيليغ وواحات درعة وتافيلالت في جنوب المغرب، ثم تندوف وشنقيط وأروان بالصحراء، وانصب الاهتمام في النطاق الثالث (السودان الغربي) على تنبكت، المدينة الساحرة، التي طالما جذبت اهتمام الرحالة الأوروبيين طيلة القرن XIXم مما وفر لنا عنها معلومات في غاية الأهمية. وكل من يتحدث عن تنبكت يشق عليه تجاهل مدينة جني الواقعة جنوبها، حيث ربطتهما علاقات تاريخية عريقة، ناهيك عن دور نهر النيجر في تعزيز التواصل بينهما، ولذلك فقد انتقتهما المؤلفة معا لتمثيل النطاق السوداني.

وبينما كانت الدراسة تعمل جاهدة على رسم معالم خريطة أهم المراكز التجارية، نلاحظ تلميحات ذكية للقارئ بضرورة العمل على استحضار السياق الدولي المميز للفترة قيد الدرس (1830-1894)، وذلك باعتبار أنها توافق عودة الحيوية إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وتزامن ذلك مع الدينامية الاستعمارية الأوروبية، علما أن المحيط الأطلنتي قد خطف تلك الأهمية منذ العصر الحديث (XVI-XVIIIم).

ونحن نتابع في القسم الأول (بفصوله الثلاثة) تلك الأنشطة التجارية ومستلزماتها وطبيعة موادها المتبادلة ومراكزها فيما بين المغرب وإفريقيا الغربية، نقع بين الفينة والأخرى على إفادات بالغة الأهمية بالنسبة لعدد من القبائل الصحراوية والسودانية (البيضان والفلان)

المساهمة في التجارة الصحراوية، مع رصد لبعض التأثيرات والتقاليد المغربية في الحياة السودانية سواء في المأكل أو الملبس أو العمارة.

لقد مهدت العناصر ذات الطابع الاجتماعي والثقافي مما نوهت به الأستاذة فاطمة الزهراء طموح لولوج القسم الثاني المعنون بـ: المبادلات الثقافية؛ فاشتمل هو الآخر على ثلاثة فصول، اعتنت أولا بالطريقة التيجانية ثم بالقادرية ثانيا، في حين خصّصت الفصل الثالث لواقع الصراع والتنافس بينهما.

ويدلنا الترتيب المنهجي لفصول القسم الثاني، على مدى نضج طريقة التناول، وإلا فإن أحكام الكرونولوجيا تستدعي الحديث عن القادرية في الفصل الأول ثم التيجانية في الفصل الثاني، وذلك على أساس اعتبار الأسبقية الزمنية. ويظهر أن الغاية من ذلك هي توضيح الصورة التاريخية أمام القارئ حتى لا يضيع منه الخيط الناظم لعلاقات المغرب بإفريقيا الغربية عبر الصحراء.

ولد أحمد التيجاني بقرية عين ماضي جنوب الجزائر عام 1738م، واضطر أمام مضايقات ممثلي السلطة العثمانية الشديدة للهجرة إلى فاس، فلقي من السلطان المولى سليمان ترحيبا حمله على الاستقرار بها، ثم أقدم على تأسيس زاويته المعروفة باسمه. وغير خاف، أن هذه الحلقة من مسار الطريقة يصعب فهمها دون استحضار الصراع العثماني المغربي على الحدود الشرقية، وفي هذا ما يفسر إعلان السلطان نفسه انتماءه إلى الطريقة التيجانية لخدمة هذا الغرض، ولكن أيضا للحد من سطوة الطريقة الوزانية القوية حينئذ، فسار على هديه بعض رجالات الدولة مثل الوزير أكنسوس.

ولا يغرب عن البال هنا أن احتماء الطريقة بهيبة السلطان أسهم في انتشارها وتوسيع قاعدة مريديها بالمغرب، كما أن فضل بعض رجالاتها المقربين من الشيخ أحمد التيجاني (ت. 1815م)، خاصة الحاج علي حرازم صاحب كتاب **جواهر المعاني**، لا ينكر في هذا الباب. على أن أهم عنصر في نظر المؤلفة (197) ساعد في انتشارها، إنما تمثل في بساطة القواعد والأسس التي انبنت عليها الطريقة التيجانية، فجذبت إليها أكثر أهل الحضر، بينما كانت الطرق الأخرى متجذرة في الأرياف.

وحينما ننتقل لصحراء بلاد شنقيط، نسجل ارتباط الطريقة بقبيلة إيد أوعلي، منذ وقت مبكر، بفضل الشيخ محمد الحافظ العلوي الذي كانت له أيادي بيضاء في نشرها بالصحراء، وعبره ثم عبر مريديه انتقلت الطريقة التيجانية إلى ربوع إفريقيا الغربية. ومثلما تهيأ للصحراء رجلها، كان لمولود فال بالسودان الغربي نفس الدور الذي لعبه محمد الحافظ. وزاد من إشعاع الطريقة أن اعتنقها الحاج عمر الفوتي (ت. 1864م)، حيث حاول إقامة دولة إسلامية تيجانية، وواجه في سبيل ذلك من نعتوا وقتئذ بكفار البنبرا، ومسلمي ماسنة القادريين.

وتفيدنا الوقائع التاريخية اللاحقة أن الطريقة واصلت انتشارها بالمنطقة، وتضاعف أعداد المريدين نتيجة المصداقية التي اكتسبتها بين عموم الناس حين اختارت مواجهة الاستعمار الفرنسي، بينما نجد أبناء أحمد التيجاني بالجزائر وأحفاده يهادنون الإدارة الاستعمارية، بل ويوالونها. ومما ساعد في ترسيخ موقعها بالصحراء والسودان الغربي، أن بات طريق الحج يمر عبر أراضي المغرب رغبة في زيارة ضريح أحمد التيجاني بفاس قبل التوجه إلى بلاد الحجاز.

لقد استعرض الفصل الأول من القسم الثاني تفاصيل كثيرة تتعلق بالتيجانية ومسار تطورها، ولعل أهم ما يشدنا في ذلك، حرص الدراسة على رصد شبكة العلاقات الأسرية التيجانية (المصاهرة) من أقصى شمال المغرب إلى أعالي نهري السنغال والنيجر.

ينتقل بنا الفصل الثاني لاستعراض أحوال الطريقة القادرية، بتوضيح حيثيات ارتباطها بأسرة المختار الكنتي (1729-1811م) في منطقة أزواد، وانتقالها من هناك إلى المغرب والسودان الغربي والأوسط. وباعتبار الحيوية التجارية لقبيل كنتة المسيطر على محور: تاوديني-تنبكت، وجدت الطريقة أرضا خصبة للانتشار في جل أرجاء منطقة الصحراء والساحل.

وتذهب الدراسة إلى أن أهم عنصر عزز موقع القادرية، يتمثل في غياب التطلعات السياسية عند شيوخ الطريقة بقدر ما أولوا جل عنايتهم لدور الوساطة فيما بين القبائل والوحدات السياسية القائمة بالمنطقة؛ ناهيك عن اهتمامهم بتيسير مسالك التجارة بفضل حرصهم الدائم على بناء الآبار وضمان سبل الأمن. كل ذلك أكسبهم احتراما وتقديرا بين أهالي المنطقة، خاصة لدى فئة التجار سواء كانوا قادريين أو غير ذلك، كما شملت عنايتهم التجار اليهود والمستكشفين الأوروبيين مثل هنري بارث.

وبعد استحضار حجم الإشعاع الذي شهدته الطريقة المختارية سواء بالمغرب أو بمنطقة الساحل والصحراء، ومدى تأثيرها السياسي والديني بهذه المجالات (إلى درجة انخراط سلاطين المغرب في صفوفها خلال القرن XIXم، فدأبوا على طلب ودّ شيوخها وتبادلوا معهم الرسائل)؛ انتقلت الدراسة لرصد بعض مظاهر التجديد الذي عرفته الطريقة المختارية، خاصة مع العالم ولد محمد الفاضل (1869-1870م) بمنطقة الحوض، والد المجاهد ماء العينين (ت. 1910).

وقد تمّ تكريس الفصل الثالث من القسم الثاني، لتناول أوجه الصراع بين الطريقتين القادرية والتيجانية؛ ومن هنا تحتمت ضرورة توضيح طبيعة الصراع ومآلاته. وغني عن البيان، أن المعطيات التي تناولت مسار الطريقتين فيما تقدم من صفحات، قد أشرت على تنافس شديد بين التليد (المختارية) والطارئ (التيجانية).

ومن حسن الحظ، انحصار الصراع بينهما في المغرب على المستوى الثقافي أو الإيديولوجي كما أشارت إليه المؤلفة. ومن ثمة، نقع على سرد ووصف وتحاليل ممتعة لتلك المراسلات التي

وقع تبادلها بين الوزير أكنسوس التيجاني والبكاي شيخ الطريقة المختارية الكنتية.

غير أن الصراع بينهما في منطقة الساحل والصحراء، اتخذ شكلا عنيفا بلغ حدّ المواجهة العسكرية، وذلك إبان تحركات جيش الحاج عمر الفوتي التيجاني برسم إخضاع إمارة ماسنة المتحالفة مع الكنتيين. ولما تم له ذلك، ودخل عاصمتها حمد الله عام 1862م، توجهت أنظاره إلى تنبكت، فبات الصراع العسكري مع الكنتيين حتميا، ثم انضافت المناورات الاستعمارية لكسر شوكته؛ وأثناء إحدى المحاولات العسكرية، قتل الشيخ الحاج عمر سنة 1864م، وانطفأت بذلك شعلة هذه الدولة التيجانية الفتية.

وينتهي الكتاب بخلاصة تنعش الكثير مما مرّ علينا من الأفكار، بيد أن التشديد على فكرة التراجع التدريجي للمبادلات التجارية فيما بين ضفتي الصحراء خلال القرن XIXم، وتلازم ذلك مع قوة وديناميةالمبادلات الثقافية، تطرح أمام الباحثين نموذجا حيا، يعاكس ما اعتادوا عليه من أن التطور الاقتصادي غالبا ما يجد صدى له على المستوى الثقافي.

يبدأ زمن الدراسة بحادث استعماري ثم ينتهي بلحظة مماثلة، بيد أن لبّ الموضوع يأخذنا لتتبع تفاصيل المبادلات التجارية والثقافية (الصوفية) فيما بين المغرب وإفريقيا الغربية. وغير خاف، أن كتابة تاريخ إفريقيا خلال القرن XIXم دون استحضار الظاهرة الاستعمارية، أو مؤتمر برلين (1884)، الذي سمح بتقسيم النفوذ الأوروبي وشرعن الاستعمار بالقارة، يعد في حد ذاته أمرا عسيرا، وتحديا منهجيا بالغ التعقيد. وفي هذا الجانب، برهنت الأستاذة فاطمة الزهراء طموح عن نضج رصين في طريقة التناول والمعالجة إن على المستوى المنهجي أو الموضوعي. وبناء عليه، فقد فتحت أمام الباحثين آفاقا أرحب في كيفية التعامل مع تاريخ إفريقيا، وأمدتهم أيضا، بطرائق المناورة المعرفية – ونحن بباريس – في سبيل الإجابة عن أسئلة خفية من قبيل: ماذا كانت نتائج الاستعمار الفرنسي على المجال المعني بالدراسة؟

أحمد الشكري
معهد الدراسات الإفريقية
جامعة محمد الخامس بالرباط